صور الواقعية
في
الرواية الحديثة والقصة

دراسات تحليلية وتقارير

الدكتور
سعد أبو الرضا

Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel:(202)23900868

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة . ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدعوة والفن في رواية "عصفوران بين الشرق والغرب"

لعبد الحميد ضحا[1]

يمثل هذا العنوان مدخلاً مهما في إضاءة هذه الرواية، خاصةً، وهو يمكن أن يتصل بأعمال روائية أخرى، رصدت اتصال الشرق بالغرب في مطلع النهضة الحديثة، مثل: عصفور من الشرق "لتوفيق الحكيم، الذي حاول رصد وقع أثر النهضة في أوروبا على الشخصية الشرقية بميراثها من المبادئ الإسلامية، والأعراف والتقاليد الشرقية.

والعصفور في معظم هذه الأعمال يرمز إلى الفنان وكيفية تلقيه لهذه المتغيرات في أوروبا، ومدى تكيفه بأعرافه وتقاليده ومبادئه مع هذه المتغيرات من حيث علاقة الرجل بالمرأة، وحرية الاعتقاد، وكيفية تجلي حرص الإنسان على التمسك بمبادئ دينه الإسلامي، وتعامله مع الفنون الأدبية المختلفة.

ولقد اتجه "توفيق الحكيم" إلى اقتناعه بفن المسرح، وتجلى ذلك في حرصه على أن يملأ ما في هذا المجال في أدبنا الحديث، فتعددت نماذجه وتجاربه المسرحية حتى ليقال إنه - بما كتب من مسرحيات - قد قدم نماذجه لكل الاتجاهات المسرحية، من كلاسيكية، ورومانسية وواقعية، ورمزية، ولا معقولة،.....، وغير ذلك.

بينما "عبد الحميد ضحا" وجّه اهتمامه إلى نشر الدعوة الإسلامية موظفًا بناءه الروائي لتحقيق هذا الهدف الإنساني، وقد اعتمد في بنائه على تشكيل الشخصيات المتحولة: "يوسف" أولاً، الشخصية المصرية التي هاجرت من مصر إلى فرنسا بحثًا عن

---

(١) عبد الحميد ضحا: "عصفوران بين الشرق والغرب" إبداع للإعلام والنشر، ط ١، سنة ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣م، القاهرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحرية والانطلاق والحلال أيضًا الذي ابتعد أبوه عنه، وشخصية "مارتينا" الفرنسية التي أصبحت "عائشة" المسلمة، الباحثة عن قيم الإسلام ومبادئه وكيفية تجسيدها لها.

ولكن هل كان هذا التحول بالنسبة لكلتا الشخصيتين اللتين جمع بينهما حبهما للإسلام والدفاع عنه مسوغًا، ومقنعًا منطقيًا وفنيًا؟

فقد انتقل "يوسف" إلى العمل في فرنسا، فرارًا من وجه أبيه "على إبراهيم"، رجل الأعمال الذي بنى ثروته ومستقبله على النهب والسلب والاستغلال السيئ لثروات بلاده، وقد ضاق "يوسف" بهذا الحرام، وهكذا التقى "بمارتينا" الفرنسية في الشركة التي يعمل بها وهي موظفة بها مثله، وكان أول لقاء بينهما في شقته بناء على رغبتها، لكنه ليس للهو والعبث، وإنما لتحكي له تشوقها للإسلام، ورفضها لما تراه من فساد وانحلال، إيثارًا منها للاستقامة، لكنها لا تجد السبل التي تحقق لها ما تريد، وفي الوقت نفسه فوجئ "يوسف" بما طلبته منه، فقد ظن أن هذا اللقاء، للهو وتزجية الوقت، كما أنه لا يملك من الوسائل ما يروي ظمأها لمعرفة الإسلام ومبادئه، ومن ثم لم يجد سبيلاً إلى ذلك إلا بتوجيهها إلى المركز الإسلامي في باريس، وباتصالها بالأخوات هناك وجدت ما تبحث عنه، وما يمكن أن يزودها بكثير من مبادئ الإسلام وقيمه، وما يروي ظمأها في هذا المجال، ويزيدها في الوقت نفسه حبًا في الإسلام ومبادئه، بل وما يهيؤها لتصبح داعية في هذا المجال.

ويتضاعف الموقف تعقيدًا، والحدث تأزمًا بوصول "كاميليا" المسيحية المصرية إلى فرنسا ضيفة على أخيها "بطرس" الذي يعمل في الشركة نفسها التي تضم "يوسف ومارتينا"، بل وأصبحت تضم "كاميليا" أيضًا، وتلتقي بمارتينا المتحمسة للمرأة المسلمة، لكن "كاميليا" قد دُفعت إلى مغادرة مصر هروبًا بنفسها وحريتها من تقييد الكنيسة وأهلها لها، فكان الحل في نظر أهلها أن تذهب إلى أخيها "بطرس" في فرنسا ليُحكم حصارها، وتكون تحت سمعه وبصره، خاصةً وقد كان لديها شيء من الميل إلى الإسلام، لكن أهلها في مصر والكنيسة معهم هناك هددوها بحبسها في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدير، وذلك أخوف ما تخاف منه "كاميليا" كغيرها من الفتيات المسيحيات، وكذلك فقد كانت "كاميليا" تخفي كثيرًا من رغباتها وتطلعاتها عمن حولها في مصر.

لكنها وجدت في "مارتينا" المتطلعة إلى الإسلام أو الراغبة في التحرر من تقاليد الغرب المنفتحة بغير حدود مَن تكاشفها، ووجدت لديها من الاستجابة والرؤية المستنيرة التي تستقي معالمها من الإسلام ما جعلهما يتقاربان ويتكاشفان ويتناصحان، بل هو أكثر من ذلك عندما انتقلت "كاميليا" إلى الحياة مع "مارتينا" في مسكنها، وهو ما اعتبره "بطرس" خروجًا يستوجب أشد العقاب، وهو تهديدها بالعودة إلى مصر.

وفي لقاء عن محاربة فكرة "أسلمة أوروبا" بتحريض من "بطرس"، وقد دُعي إلى هذا الملتقى "يوسف، ومارتينا، وكاميليا"، بل لقد اقترح "بطرس" أن تعطى الكلمة ليوسف "ليقول ما عنده، ولم يكن عنده الكثير مما يقال، لولا حماس "مارتينا" التي عاونته ببعض المختصرات من الكتب الإسلامية، وقد وجد فيها "يوسف" ضالته، وأفحم المستمعين، وأسقط في يد "بطرس" الذي لم يخرج من هذا الملتقى إلا وكاميليا، ومارتينا، ويوسف" قد صاروا جبهة واحدة بحثًا عن قيم الإسلام ودعمًا لها وتأكيدًا للحرية فكرًا ومعتقدًا.

وثمة متغيرات قد أكدت هذا التحول بالنسبة لهذا الثالوث، "فمارتينا" أعادت أمها إليها لتعيش معها تاركة بيت المسنين الذي لم يكن فيه أي رعاية لكبار السن، وإن كان سوف ينتهي أجلها بعد قليل، ولكن في رعاية ابنتها "مارتينا"، وكاميليا" قد عقدت العزم على التوجه إلى لندن هروبًا بحريتها ومعتقدها، ويوسف كثر تردده على المركز الإسلامي، وتوثق اتصاله بمارتينا أكثر، وهي التي آثرت أن تسمي نفسها "عائشة" تيمنًا بزوجة رسول الله ﷺ.

وتتسع رؤية الكاتب لتشمل عديدًا من قضايا الشباب، وليست فقط قضية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدين، بل قضية الهجرة؛ هجرة الشباب، وقد لا يملكون ما يدفعونه مقابل هذه الهجرة غير الشرعية، ثم يواجهون في أوروبا عذاب لقمة العيش، فقد يلجأ حسن إلى أمه وأبيه كي يوفرا له المبلغ المطلوب، ولكن من أين لهم ذلك؟ وهم يوفرون قوت يومهم بالكاد.

وعندما يذهب إلى أوروبا يتحايل على رزقه بما هو أقرب إلى "الفهلوة" وليس أقرب إلى الصدق، ويعاني الكثير من أجل توفير لقمة عيشه.

وهكذا يتم التحول إلى أقصى مداه بالنسبة لهذه الشخصيات كما تتجلى فكرة الكاتب نفسه في دفاعه عن الإسلام والدعوة إليه، متخذًا من الشكل الروائي المزدحم بالأحداث وسيلة إلى ذلك.

بل ويربط بين هؤلاء الذي انتقلوا من الشرق إلى الغرب، وبين بقية أهلهم فيه، عندما تخرج "شوشو" أخت يوسف ورفاقها في مصر، في نزهة خلوية، وهم رفاق سوء لا يربطهم بالإسلام إلا الاسم فقط، وتتصدى لهم عصابة شريرة تستحوذ على "شوشو" التي انفجر إطار سيارتها، وقد تخلى عنها كل رفاقها هربًا من هذه العصابة، ولم ينقذ "شوشو" من يد هؤلاء الأشقياء إلا "عمر" مدرب الكونغفو الذي كان يدرب تلاميذه مصادفةً، وكان يمر بهذا المكان، من ثم جال وصال موظفًا خبراته الرياضية في هزيمة هذه العصابة التي هربت بنفسها ناجية منه.

في هذا الوقت كان "علي إبراهيم" والد "شوشو ويوسف"، قد انتابه القلق خوفًا على ابنته، وقد اتصل بوزير الداخلية للبحث عنها، وتكشف الرواية بعض رجال الأمن في اعتمادهم على المجرمين وقطاع الطرق في تحصيل المعلومات، وهي معلومات تقدم كأدلة أمام النيابة والقضاء، وهكذا تحولت شهامة "عمر" وإخلاصه في إنقاذ "شوشو" إلى جريمة يعاقب عليها، بعد أن أن هزم هؤلاء المجرمين الذين تعرضوا لها، لولا على إبراهيم" بعد أن عرف حقيقة موقف عمر الشهم، فتوسط

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن طريق وزير الداخلية لإنقاذ عمر مما يتهم به، وادعته ضده عصابة الأشرار الذين هزمهم وخلص "شوشو" من أيديهم، وهكذا تتوطد العلاقة بين "عمر وعلي إبراهيم"، وتبدى "شوشو" إعجابها الشديد "بعمر"، بل تصر على الزواج منه متحدية رغبة أبيها، ولا يتم ذلك إلا بعد عودة "يوسف" من فرنسا، وتتوطد علاقته بعمر لما بينهما من ولاء للإسلام، بل يحرص يوسف على أن تجلس "شوشو" إلى عمر ليتفاهما على كل ما يؤكد ما يبتغيه "عمر" منها، ويتدعم التوجه الإسلامي في هذه الأسرة، خاصة "ووالدة يوسف وشوشو" لديهما الاستعداد لذلك.

وتقتنع "عائشة" بالرجوع إلى مصر خاصة بعد أن رجع "يوسف" إلى مصر، آملة أن تجد البيئة الإسلامية التي تحقق لها طموحاتها في هذا المجال، وقد ترتبط "بيوسف" لكنها لا تجد من رفيقات شوشو إلا كل صد وسخرية، مما يضاعف من إحساس عائشة بوجوب دعوتهن إلى الإسلام وتأمل قيمه، ولكن دون جدوى، مما جعل عائشة تعيد النظر في انتقالها من فرنسا إلى مصر، خلال مناجيات عدة كشفت عن داخل مفعم بحب الإسلام، لكنه لا يجد البيئة الملائمة، مما يجعلها تعود إلى فرنسا ومركزها الإسلامي، فقد يكون ذلك هو المكان الملائم لهذه المسلمة الحريصة على حريتها ومعتقدها الإسلامي، ومهما كلفها ذلك من تضحيات بعلاقتها بيوسف وأسرته التي كانت قد بدأت تعيش بينهم.

وهكذا يتجلى إيقاع الحدث بطيئًا في القسم الأول من الرواية، ثم سريعًا جدًا في القسم الأخير منها مزدحمًا بأجزائه، برغم حرص الكاتب على كثرة التفاصيل ودقتها، تلك الكثرة التي يساعد عليها امتداد الزمان والمكان في الرواية ما بين مصر وفرنسا، وتعدد الشخصيات التي يجمع بينها الإسلام بمبادئه وأعرافه "يوسف، وعائشة وكاميليا، وعمر، وشوشو، في مقابل علي إبراهيم، ورفيقات شوشو المنفلتات"، ويتجلى قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، مستوعبًا لجهود هذا الداعية "عبد الحميد ضحا"، في روايته "عصفوران بين الشرق والغرب" لكن لماذا اختار الكاتب عودة "يوسف" إلى مصر وعودة "مارتينا" إلى فرنسا؟

هل كان ذلك لمجرد أن يستقيم عنوان الرواية، "عصفوران بين الشرق والغرب" مع أن مسوغات الجمع بينهما في الرواية قوية جدًا، وكما حققت التقاءهما في فرنسا فكان يمكن أن تحقق اجتماعهما في مصر، وربما كان هذا الالتقاء أقرب منطقيا وفنيا ونفسيا بالنسبة للمتلقي، لكن ربما كان موقف الكاتب في هذه النهاية استجابة لحسه الإسلامي أكثر من استجابته لحسه الفني، وهو ما كان يجب على الكاتب أن يوازن بينهما.

■ ■ ■

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

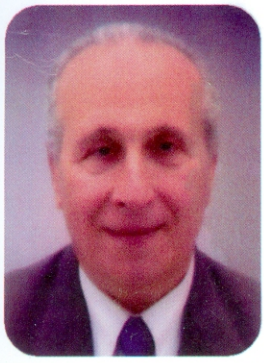

صور الواقعية

في الرواية الحديثة والقصة

دراسات تحليلية وتقارير

د .سعد أبو الرضا

برغم أن الواقعية متعددة الأشكال والاتجـــاهات ، فهناك الواقعية النقدية ، وهناك الواقعية الاشتراكية ، وهناك الواقعية المادية ، وأخيرًا هناك الواقعية السحرية ، بل هناك كثيرٌ من النقاد والمفكرين الذين اختلفوا على تسميتها ، وحتى مجرد الاعتراف بها ، لكن ذلك لم يمنعنا من اتخاذها عنوانًا لهذا الكتاب ، ما دامت ظواهرها موجودة في هذه الأعمال الروائية والقصصية كما سيتضح .

ويقترن بهؤلاء الذين اختلفوا حولها ، من اعترفوا بها من اصحاب المذاهب الواقعية المختلفة من أمثال : "بلـزاك" (1799 - 1850 م) و"إميـل زولا" (1840 - 1902 م) وغيرهما .

ومنذ دعا بلزاك إلى تشـــريح كتـــاب القصة للمجتمع ، فقد أصبح توظيف الجنس في الرواية عاملاً هامًا في تشكيلها ، بين مقتصد في ذلك ، وآخر لا يلفت نظره في المجتمع إلا الجنس وعلاقاته ، وما يؤدي إلى ذلك .

وربما كان تناول الدراسات النفسية منذ فرويد إلى اليوم لأثر الجنس في حياة الإنسان من العوامل التي ساعدت على تفشي هذه الظاهرة في مجال الأعمال السردية .

هذا برغم أن كبار الواقعيين لم يبرزوا سلبيات المجتمع إلا بغية ترشيده بالتنفير من هذه السلبيات ، والحث على بنائه وسلامة توجيهه وترشيده .

ISBN 978 977 468 795 2

9 789774 687952

تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى : دار المعارف - الأهرام - الأخبار روزاليوسف - الهيئة المصـــرية العامة للكتـــاب - الجمهورية ودار الأمل للكتاب ٢٨شارع الدقي ت: ٣٣٣٥٩٧١٩